**رأي أ.ولفنسون في أصالة الفعل في اللغات السّامية\*

الدكتور: عبد القادر سلاّمي

\*الملخص:
ترمي هذه المداخلة إلى الوقوف مليّاً (عرضاً وتوجيهاً)مع ما ذهب إليه المستشرق الألماني أ. ولفنسون في كتابه” تاريخ اللغات السّامية”من أمر سيادة العقلية الفعلية على اللغات السّامية، ومنها اللغة العربية،من حيث كان الفعل فيها كلّ شيء، تتكوّن منه الجملة ويخضع له الاسم والضمير ويرتبط به الضّمير ارتباطاً وثيقاً،ولجمهور الأسماء أفعال مستخدمة.أما اللغات الآرية، فأصل الاشتقاق فيها هو المصدر الاسمي، وعن الفرس، الذين بحثوا في اللغة العربية بعقليتهم الآرية، انتقل ذلك إلى العرب.

أولاً-من تاريخ المسألة:
اختلـف العلماء فـي مدار الاشتقاق، فذهبـت طائفـة منهـم إلى أن الكلـم بعضـه مشتـق ، و بعضـه غيـر مشتـق و ذهبت طائفـة مـن متأخري فقـه اللغـة إلـى أن الكلم كلـه مشتـق ، وقـد نسـب هـذا المـذهـب إلـى الـزجـاج (ت 311هـ).و قـال بعضـهـم أنّ سيبويـه(ت180 هـ) كـان يـرى ذلـك . وزعـم قـوم مـن أهـل النظر أنّ”بعض الكلم مشتق ، وبعضه غيـر مشتـق “،(1)وهو رأي علمـي جدير بـأن ننتصر لـه ،و هـو مـا ذهـب إليه أغلب المؤلفين في اللغة.(2)
كمـا اختلف العلماء في أصل الاشتقـاق،فذهـب البصريـون إلى أن المصدر هـو أصـل الاشتقاق،و أن الفعـل مشتق منه . و ذهب الكوفيـون إلـى عكـس ذلـك، و قـد اعتمـد كـل منهمـا حججـا أكثرهـا منطقي لتأييد وجهـة نظره،وقـد أورد” أبـو البركـات ابـن الأنباري (ت577هـ) هذه الحجج مفصلـة في كتابـه”الإنصـاف في مسائـل الخـلاف بيـن النحوييـن البصرييـن و الكوفييـن “نذكرهـا ملخصة فيما يلي3)
1- حجج البصريين:
أ- إن المصـدر يـدل على زمـن مطلق، أمـا الفعـل، فيـدل على زمـن معين و بمـا أن المطلـق أصـل للمقيد و كـذلك المصـدر أصـل للفعـل.
ب- إن المصـدر اسـم، و الاسـم يقـوم بنفسـه و يستغني عـن الفعـل؛ لكـن الفعـل لا يقـوم بنفسـه بـل يفتقـر إلى الاسـم، ومـا يستغنـي بنفسـه و لا يفتقـر لغيـره أولى بـأن يكـون أصـلا لمـا لا يقـوم بنفسه ويفتقر إلى غيره.
ج- إن المصدر إنمـا سمـي كـذلك لصـدور الفعـل عنـه.
د- إن المصدر يـدل على شـيء واحد هـو الحـدث. أمـا الفعـل، فيـدل بصيغتـه على الحـدث و الزمـن، و بمـا أن الواحـد أصـل اثنين كـذلك المصـدر أصـل للفعـل.
هـ- إن المصـدر لـه مثـال واحـد: كحمـل و أخـذ، و الفعـل لـه أمثلـة مختلفـة، و بمـا أن الذهـب نـوع واحـد و مـا يوجـد صـور و أنـواع أخـرى.
و- إن الفعـل يـدل بصيغتـه على ما يـدل عليـه المصـدر، فالفعـل حمـل مثـلا يـدل على مـا يـدل عليه الحمـل، الذي هـو المصـدر و ليـس العكـس صحيحاً،و لذلك كـان المصـدر أصـلا و الفعل فـرعـا، و لأن الفـرع لابد أن يكـون فيـه الأصـل.
2- حجج الكوفيين :
أما الكوفيون فذهبـوا،إلى أن المصـدر مشتـق من الفعـل و فـرع عليه نحو كتـب كتابـة ، و قـام قيامـا ، و انتشـر انتشـارا ، و استفسر استفسارا.
أ- إن المصـدر يصـح لصحـة الفعـل و يعتـل لاعتلاله نحو، قاَومَ قِوَاماً،فيصح المصدر لصحة الفعل و نقول قام قياما فيعتل لاعتلالـه و أصله قـوم قـوامـا.
ب- إن الفعـل يعمـل في المصـدر نحو: لقيتـك لقـاءً، و صافحتُك مصافحةً حارَّةً، فالمصـدر منصـوب على المفعوليـة المطلقـة، و عامـل النصب فيه فعلـه، فوجب أن يكون فرعـا لـه، لأن رتبـة العامـل قبـل رتبـة المعمـول.
ج- إن المصـدر يذكـر توكيـدا للفعـل نحـو: شـدَدْت الحبـل شـدّاًً و لا شـك أن رتبـة المؤكّـد قبـل رتبـة المؤكـد فـدل علـى الفعـل أصـل،و المصـدر فـرع.
د- إن ثمـة أفعـالا لا مصـادر لهـا وهي : نعـم و بئـس و عسى و ليـس وحبـذا ، فلـو كـان المصـدر أصـلا لمـا خلـت مـن هـذه الأفعـال لاستحالـة وجـود فـرع مـن غيـر أصـل .
هـ- إن المصـدر لا يتصـور معنـاه مـا لـم يكـن فعـل فاعـل. و الفاعـل وضـع لـه (فعل و يفعل) فينبغـي أن يكـون الفعـل الـذي يعـرف بـه المصـدر أصـل للمصـدر.
ثانياً- أصل المشتقات في الميزان:
انتصـر ابـن الأنباري (ت577هـ) للمدرسـة البصريـة، لأنـه كـان بصـري المذهـب.و ردّ علـى حجـج الكوفييـن علـى الترتيـب فقـال4)
- هـذا دليـل مـردود، لأنـا أجمعنـا علـى أن الحـروف و الأفعـال تعمـل فـي الأسمـاء، ولا خـلاف فـي أن الحـروف و الأفعـال ليسـت أصـلا للأسمـاء فكذلـك هاهنا .
- هـذا دليـل مـردود لأننـا نقول: جاءني زيدٌ زيدٌ ، و رأيت زيداً زيداً، ومررت بزيدٍ زيدٍ، و الثـاني توكيـد للأول في هذه المواضيـع ، وليـس مشتقـا منـه ، ولا فرعـا عليـه . فكذلك هاهنا.
- إن الفـرع قد يستعمـل و إن لم يستعمـل الأصـل، و لا يخـرج الأصـل بذلك عـن كونـه أصـلا، ولا الفـرع عن كونـه فرعـا، فقـد قالـواطيرٌ عبَابيد)أي متفرقـة فاستعملـوا لفظ الجمـع الذي هو فـرع و إن لم يستعملـوا لفـظ الواحـد الـذي هو الأصـل، و قالـواطيرٌ أبابيل)،(5) أي: جماعـات و هو جمـع لا واحـد لـه في أقوال النحوييـن.و هنـاك أيضـا المصـادر التي لا أفعـال لهـا نحـو: وَيْلَـهُ و وَيْحَـهُ.
على أنّ من العلمـاء المحدثين مـن انتصـر للنظريـة البصـرية؛ فهذا صبحـي صالـح يقـول: ” لو كانت موازنــة العلمـاء – في بحث أصـل الاشتقـاق – بيـن الفعـل و المصـدر لرأينـا عبثـا ضائعـا ما ذهـب إليـه الكوفيـون مـن أن الفعـل هو أصـل الاشتقـاق و لمـا ترددنـا قـطُّ في أن المصـدر أجـدر أن يكـون هـو أصل المشتقـات كلهـا”. (6) و وهو مذهب ارتضاه سعيـد الأفغاني من منطلق أنّ:” المصدر بحق يـدل على الحـدث، و الفعـل يـدل على حدث و زمـن.و الأسماء المشقتة تدل على حدث و زمن مع زيـادة ثالثة كالدلالة على الفاعل أو المفعـول أو التفضيل أو المكـان ، فهذه الكثـرة من المشتقـات التي جعلت للغـة سعتهـا و مرانتهـا أخذت مـن المصـادر التي هـي جميعـا مـن أسمـاء معـان”.(7)
و مع ذلك فإنّه يظلّ من العسيـر علينـا ترجيـح أحد الرأييـن عـلى الآخـر؛ لأن كل منهما،على نحو ما رآه السيوطي(ت911هـ)، اعتمـد علـى دلائـل قـاطـعـة وحجـج دامغـة.ولـم يبـق أمامنـا إلا الاعتمـاد على قرائـن أخرى تعتمـد على التغييـرات الحاصلـة بين الأصـل المشتـق منـه والفـرع المشتـق و هـي خمسة عشـر علـى التوالـي8)
الأول: زيـادة حركـة ، كعلـم و علـم .
الثاني : زيـادة مـادة ، كطالـب و طلـب .
الثالث : زيـادتهمـا ، كضـارب و ضـرب .
الرابع : نقصـان حركـة ، كالفـرس مـن الفـرس .
الخامس : نقصـان مـادة ، كثبـت و ثبـات .
السادس : نقصانهمـا ، كنَزَا و نـزوان .
السابع : نقصـان حركـة و زيـادة مـادة ، كغضْـبي و غضـب .
الثامن : نقصـان مـادة و زيـادة جركـة ، كحـرم و حرمـان .
التاسع : زيـادتهمـا مـع نقصانهما ، كاسْتَنْـوَق مـن الناقـة .
العاشر : تغايـر الحركتيـن ، كبَطٍـر و بَطَـرا .
الحادي عشر :نقصـان مـادة و زيـادة أخرى و حـرف،كاضْرِبْ مـن الضـرب.
الثاني عشر : نقـص مـادة و زيـادة أخـرى ، كرَاضِـع مـن الرَّضاعـة.
الثالث عشر:نقـص مـادة و زيـادة أخرى و حركة،كخاف مـن الخـَوْف لأن الفـاء ساكنـة في خـوف لعـدم التركيـب .
الرابع عشر:نقصـان حركة و حـرف و زيـادة حركة فقـط، كعـِدْ مـن الوَعْـد؛ فيـه نقصـان الـواو وحركتهـا و زيـادة كسـرة .
الخامس عشر:نقصـان حركة و حـرف و زيـادة حـرف ، كفاخَر مـن الفخار ، نقصـت ألـف و زادت ألف و فتحة .
أمّا تـردُّد الكلمـة بيـن أصليـن في الاشتقـاق فيطلـب الترجيـح و لـه وجـوه9)
أحدهما:الأمكنيـة ؛ كمَهْـدَدُ (\*) علمـاً من الهـد أو المهـد، فيـُرَدُّ إلى المَهْـد؛لأن بـاب كـرم أمكـنُ و أوسـعُ و أفصـحُ و أخفُّ مـن بـاب كـرّ فيرجَّح بالأمكنـية .
الثاني:كـون أحـد الأصلين أشرف؛ لأنـه أحـق بالوضـع لـه و النفـوس أذْكـرُ لـه و أقبـَلُ ، كـدَوَرَان كلمة ” الله “–فيمن اشتقَّهـا- بـين الاشتقـاق مـن أَلِـه أو لوه(\*) أو وَلِـهَ (\*)؛ فيقال:من أَلِـه أشـرف و أقـرب.
الثالث :كونـه أظهـر و أوضـح كالإقبـال و القبـل.
الرابـع : كونـه أخـصّ فيرجَّح على الأعـم ،كالفضل و الفضيلة ،و قيل عكسه .
الخامس: كونـه أسهل و أحسن تصرفـاً،كاشتقاق المعارضة مـن العَـْرض بمعنى الظهـور ومـن العُـرْض وهـو الناحيـة ، فمـن الظهـور أولـى.
السادس:كونـه أقـرب والآخر أبعَـد؛كالعُقـار يـردُّ إلى عَقْر الفهم؛لا لأنهـا تسكر فتعقـر صاحبها.
السابع:كونـه أليـقُ، كالهِدَايَـة بمعنى الدلالة لا بمعنى التقدُّم من الهـَوَادَى بمعنى المتقدِّمـات.
الثامن : كونـه مطلقاً فيرجَّح على المقيَّد كالقـُرْب و المُقاربـة .
التاسع : كونـه جوهراً و الآخر عرَضاً لا يصلح للمصدريّة،و لا شأنه أن يُشتقَّ منه؛فإن الردَّ إلى الجوهر حينئذ أولى؛ لأنه الأسبـق،فإن كان مصدراً تعيّن الردُّ إليه؛ لأنّ اشتقاق العرب من الجوهر قليلٌ جدّاً، والأكثر من المصادر، ومن الاشتقاق من الجواهر قولهم: استحجرَ الطّين ، واستنْوَق الجمَل.
ثالثاً:رأي ولفنسون في المسألة:
ذهـب ولفنسون مذهب الكوفييـن مستأنسا بالدراسات اللغويـة المقارنـة، و بمـا تيـر له من معرفـة بالفصائـل اللغويـة المختلفـة في اللغات السامـية بالجامعـة المصريـة سابقـا،فقال معقّباًً:”و قـد رأى بعـض علمـاء اللغـة العربيـة أن المصـدر الاسمـي هو الأصـل الذي يشتـق منـه أصـل كـل الكلمـات و الصيـغ، و لكـن هـذا الرأي خطـأ -في رأينـا- لأنـه يحصـل أصـل الاشتقـاق مخالفـا لأصلـه في جميـع أخواتهـا الساميـة و قـد تسـرب هـذا الـرأي إلى هـؤلاء العلمـاء من الفـرس الذيـن بحثـوا في اللغـة العربيـة بعقليتهـم الآريـة والأصل في الاشتقـاق عنـد الآرييـن أن يكـون في مصـدر اسمي. أما في اللغـات الساميـة فالفعـل هو كل شيء، فمنـه تتكـون الجملـة، و لم يخضـع الفعـل للاسمو الـضمير. بـل نجد الضمير مسنـدا إلى الفعـل و مرتبطا به ارتباطا وثيقـا”.(10)
وانتهى ولفنسون إلى القول بتفرّده من بين المستشرقين بهذه النظرية الخاصة(نظرية العقلية الفعلية في اللغات السامية)، “إذ لم يشر إليها أحدٌ من علماء الإفرنج”.(11)
رابعاً-ملاحظات نقدية:
وإذا كان لنا أن نبدي رأياً في المسألة فإننا نقول:
1- إنّه إذا صحّت أصالة الفعل في اللغات السّامية فقياس العربية عليها خطأ؛لأنّ مثل هذه الأحكام لا يعمّم، وهو أمر حسمه السيوطي،وهو ما أوردناه في موضع سابق من هذا البحث.
2- ثم إنّ العقلية الفعلية في اللغات الآرية أظهر فيها في العربية،إذ لا تكاد تخلو جملة فيها من فعل.
3- وإذا كان في العربية لجمهور الأسماء أفعال، فإنّ فيها عشرات لجمهور الأفعال عشرات الأسماء،من نحو:صَنَع، مصنع، التصنيع، والمتصنَّع.
4- إنّ الفعل إخبارٌ عن وقوع أو شيءٌ يُطلب وقوعه قبل معرفته وتسميته. وعلى هذا يجب أن يكون المصدر حاضراً في الذّهن حتّى يُبنى عليه الفعل المشتق.والمشتق أيضاً صفة بالحدث بذات(نائم).فذكر المصدر حاضر فيه دائماً، ولذلك يجب أن يكون المصدر من النّاحية اللغوية أسبق من الفعل وسائر المشتقات الأخرى.إنّه كَونُ الحدث وحصوله ووقوعه. ونشوء اللغة لدى الأطفال يظهر فيه الاسم على الفعل والمشتق.أما من الناحية العقلية، فلا يُتصوَّر فعلٌ أو مشتقّ إلاّ وفيه معنى المصدر.فالطّفل الذي لا يعرف معنى الفعل يستخدم الإشارة للدلالة على عليه.أما الاسم فيلفظه.
5- إنّ قولنا إنّ الفرس نقلوا إلى العربية صورة المصدر فهو كلام يحتاج إلى دليل، وإن وجد منهم من كان من أصل فارسي، إلاّ ذلك لا يمثّل قاعدة عريضة يمكن اعتمادها منطلقا لهذا النقل أو ذاك.فلدينا ابن أبي إسحاق الحضرمي، والأخفش الأكبر والأوسط، والخليل، وغيرهم لا يعرفون اللغة الفارسية.
6- هذا، ونزعم أن قوله تعالى وعلّم آدم الأسماء كلَّها((12) يحتمل تقدّم الاسم على الفعل؛ لأنّ الأسماء أكثر تمكّنا من غيرها من الأفعال والحروف والتي يُفترض أن تكون لها أسماء كذلك.فـ( كَتَبَ) اسمٌ لفعل الكتابة، و(إلى) اسم حرف جر لبلوغ الغاية، وللاسم اسم لايعبّر عنه بحرف أو فعل.
وخلاصة القول: إنّ أسبقية المصدر هي افتراض عقلي ولغوي، وإن كانت لا تعني أن المصدر موجود دائماً قبل غيره، فقد يكون قبله أحياناً اسم ذات(\*) أو اسم فعل أو جملة ،(كما في نحو قولنا: أبحر، وكبَّر،فأبحرت في البحر، وكبَّر من الله أكبر).
ولئن ذكر بعض القدماء أنّ أسبقية المصدر افتراض وليست واجبة الحدوث في كلّ مادة لغوية فإننا نميل بذلك إلى القول:إنّه إذا كان لا بدّ من أسبقية فالمصدر صاحبها ثمّ يكون الفعل والمشتقّات والأسماء الجامدة.
ولعلّ فيما سقناه من شواهد وملاحظات يمكننا من القول في اطمئنان بما قال به ألبرت ديتريش ، وهو أحد المهتمّين بعلم الشرق جغرافية وتاريخاً وحضارة وآثاراً: إنّ” المستشرق هو ذلك الباحث الذي يُحاول دراسة الشرق وتفهّمه.ولن يتأتى له الوصول إلى نتائج سليمة في هذا المضمار ما لم يُتقن لغات الشرق”.(13)وهو قول نجد فيه منطلقاً آخر لتكوين موقف من أمر الاستشراق من حيث خدمته للغة العرب من عدمها.(14)
————————
\* مداخلة ضمن ملتقى جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية .
\*\* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة تلمسان ـ الجزائر
الحواشي
(1) المزهر في علوم اللغة و أنواعها،1/348 .
(2) الاشتقاق و دوره في نمو اللغة ، ص 65-66 .
(3) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين و الكوفيــين، 1/235-238
(المسألة 28).
(4) نفسه،1/240-241.
(5) من قوله تعالى وأرسل عليهم طَيْراً أَبَابيلَ (. الآية 3 من سورة الفيل.
(6) دراسات في فقه اللغة ،ص181.
(7) في أصول النحو ،ص 133.
(8) ينظر: المزهر في علوم اللغة و أنواعها،1/ 348-349 .
(9) ينظر: المصدر السابق 1/ 349-350 .
(\*) اسم عَلَم على امرأة. ينظر: القاموس المحيط، 1/352، مادة(المهد).
(\*) أله: تحيّر، لأنّ العقول تأله في عظمته، أو من أله إلى كذا: لجأ إليه.ينظر: القامـوس المحيط،
4/282، مادة( أله).
(\*) لاه الله الخلق: خلقهم.ليقال: لاه يليه ليْهاً: تستر، وجوّز سيبويه اشتقاق لفظ الجلالة منها. ينظر: نفسه، 4/294، مادة( له).
(10) تاريخ اللغات السامية ،ص14-15.
(11) نفسه، ص 15.
(12) الآية 31 من سورة البقرة.
(\*)اسم الذات:وهو الاسم الذي يدلّ على ذات تُدرَكُ بالحواسّ غالباً وينقسم قسمين: الاسم العَلَم: وهو اللفظ الدالّ على تعيين مسمّاه تعييناً مطلقاً ويكون للأشخاص والبقاع نحو: محمّد وعرفات. والأسماء الأعلام أكثرها منقولٌ من أسماء جامدة أو صفات كفضلأو من أفعال كيزيدُ. أو من جملة كفتح الله وأقلّها مرتجلٌ وُضع علماً في الأصل، ولم يستعمل في غير العَلمية نحو: حَمْدانُ وعِمْرانُ. وقد يكون الاسم العلم دالاّ على جنس معيّن نحو: فِرعَون علَماً على كلّ مَلِك من مُلُوك الأقباط.أمّا اسم الجنس، فهو اللفظ الدالّ على فرد شائع من أفراد الحقيقة الذهنية المجرّدة، أي: يدلّ على شيء محسوس لا يختصّ بواحد دون آخر من أفراد جنسه ويكون في الإنسان، رَجُلٌ وامرأةٌ و طفْلاً و في الحيوان كفرس و نِمرٌ و عصفورٌ أوفي النّبات كتفّاحٌ و وردٌ أو في الجماد كأرضٌ وهواءٌ و ماءٌ. ينظر: تصريف الأسماء والأفعال،ص 131-132.
(13) الدراسات العربية في ألمانيا، تطورها التاريخي ووضعها الحالي، ص7.
(14) جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة،ص 7-19.**

**\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_**